العالم العربي وإشكاليات عصر المعلومات

نشر في جريدة أخبار الخليج بتاريخ 23 يناير 2022

بقلم: الدكتور زكريا الخنجي

لا ينكر إلا جاحد الحقيقة التي تقول إننا نعيش عصر المعلومات والمعرفة، وأن من لا يمتلك المعلومات والمعرفة أو لا يقوم بتصنيعها فهو لا يمتلك القوة الحقيقية لاتخاذ قراراته بنفسه، ولا يستطيع أن يجابه بها سرعة الانتقال والتحرك والتأقلم في هذا العصر السريع الإيقاع. فعصر المعلومات – كما يعرف أنه – مصطلح يطلق على الزمن الذي تكون فيه المعلومات هي المحور الذي يتحكم في السياسة والاقتصاد والحياة الاجتماعية وجميع أوجه نشاطات الإنسانية، إنه العصر الذي انتقلت فيه القوة من الشخص الذي يمتلك رأس المال لإنشاء المصانع ويدفع أجور العمال إلى الشخص الذي يسيطر على تقنيات الاتصالات والمعلومات، وإلى الشخص الذي يمتلك المعرفة التقنية والبرمجيات بجميع أنواعها وفروعها.

ولسنا هنا نريد أن نسرد تاريخ انسياب وتدفق عصر المعلومات إلى الكرة الأرضية، فالمؤرخ الغربي يؤرخها من بعد الثورة الصناعية، والمنصف منهم يذكر الإغريق والرومان، ثم يقفز إلى عصر الثورة الصناعية، ويلغي تمامًا عصر النهضة الإسلامية منذ عصر الرشيد والمأمون وعلماء الإسلام

وكأنها لم تكن، وللأسف فإن حتى بعض مؤرخي العرب يمجدون علماء الغرب ويتساهلون في ذكر علماء العرب الذين كانوا أساس الحضارة البشرية.

ولكن ما نذكره تماماً أنه في عالمنا العربي شعرنا بولوجنا في عصر المعلومات والنهضة المعلوماتية منذ منتصف الثمانينيات من القرن العشرين، عندما دخلت أجهزة الحاسوب الشخصية في الجامعات والمؤسسات والكثير من مرافق الدول، وبعد أن امتلكنا الحواسيب ظهر جيل آخر يعرف بجيل الشبكة العنكبوتية (الإنترنت)، وبعد ذلك إلى عصر الفضائيات المفتوحة التي تحولت فيها الكرة الأرضية إلى غرفة صغيرة في منزل كبير، وغدت بعدها المعلومات تتداول وتتدفق بطريقة مذهلة وسريعة، وأصبح من الصعب التحكم في كم المعلومات التي يمكن أن يتم تداولها في الثانية الواحدة.

في عام 2003 قدَّر الباحثون في كلية إدارة ونظم المعلومات في بيركلي كاليفورنيا أن حجم البيانات التي راكمتها الإنسانية بمقدار 12 إكسابايت (الإكسابايت الواحد يوازي 10 مرفوعة لأس 18) من البيانات أو ما يماثل 50 ألف عامٍ من محتوى الفيديو عالي الجودة، وذلك عبر مسار تاريخها كله حتى إنتاج أجهزة الحاسوب على مستوى تجاري .

وفي المقابل، قدَّر الباحثون أنفسهم حجم محتوى المواد المطبوعة، والأفلام، والممغنطة، والبصرية؛ بما يماثل أكثر من 5 إكسابايت من

البيانات في عام 2002 فقط، ويكافئ ذلك حجم 37 ألف مكتبة جديدة بحجم مكتبة الكونجرس. وبالنظر إلى حجم سكان العالم في 2002 يتبين أنه أنتج ما يقترب من 800 ميجابايت من البيانات المسجلة لكل شخص، وهو ما يشكل 30 قدمًا من الكتب لكل مولود جديد جاء إلى العالم؛ أي 800 ميجابايت من البيانات المطبوعة على الورق. ومن بين هذه البيانات، جرى تخزين 92% منها في وسائط ممغنطة، معظمها على أقراص صُلبة، وهو ما أدَّى إلى حدوث عملية (دمقرطة) غير مسبوقة للمعلومات [بمعنى الشفافية والديمقراطية]؛ إذ يمتلك المزيد من الأشخاص حاليًّا مزيداً من البيانات أكثر من أي وقت مضى.

وما يزال هذا التزايد المتسارع مستمرًّا دون توقف؛ فوفق دراسات أخرى تمت في نفس الفترات الزمنية السابقة، تقول إنه سيزداد حجم البيانات الرقمية عالميًّا أكثر من ستة أضعاف، من 161 إكسابايت إلى 988 إكسابايت بين عامَي 2006 و2010، ويشير هذا التدفق في المعلومات إلى الاصطلاح الجديد (فيضان الإكسابايت) الذي يصف هذا الإعصار الهائل من وحدات البيانات التي تغمر العالم. وبطبيعة الحال، يجري اليوم استخدام مئات الملايين من أجهزة الحاسوب بصورة مستمرة للإبحار عبر فيضان الإكسابايت هذا، وستظل الأرقام السابقة تنمو باطّراد في المستقبل المنظور، ويرجع ذلك في الأساس إلى أن أجهزة الحاسوب تُعتبر من أكبر مصادر إنتاج المزيد من الإكسابايت، ويعود إليها الفضل في أننا نقترب من (عصر الزيتابايت، أي 1000 إكسابايت). هذه العملية بمثابة

دورة تعزز نفسها، ومن الطبيعي أن يشعر المرء بالارتباك بسبب هذا الحجم الهائل من المعلومات، بل يساور المرءَ شعورٌ مختلط، أو على الأقل هكذا يجب أن يكون الأمر. انتهى الاقتباس.

ولكن يجب الملاحظة أن هذه الدراسة أجريت ونشرت قبل انتشار وسائل التواصل الاجتماعي، لذلك اعتقد إن المعلومات ستكون مختلفة تماماً لو أجريت نفس الدراسة اليوم.

وحتى لا نبكي على اللبن المسكوب، ونبكي على حضارتنا التي ضاعت وتبعثرت، والتي كانت واحدة من الحضارات التي تأطر فيها الفكر والمنهجيات العلمية والثقافية والفلسفية وما إلى ذلك، نود أن نسأل اليوم، وفي هذه اللحظة؛ أين العرب من عصر المعلومات الحديثة ؟ أين العرب من عصر فيضان المعلومات ؟ أين العرب في عصر الفضائيات المفتوحة ؟

القضية في الموضوع ليس عدد مستخدمي شبكة الإنترنت في العالم العربي، إذ تشير معظم الدراسات إلى أن مستخدمي الشعوب العربية للإنترنت عال، وهذا أمر جيد، ولكن عن ماذا نبحث في الإنترنت ؟ ما المعلومات التي نستخرجها ونتصفحها بصفة يومية ؟ ثم، من الذي اخترع الحاسوب ؟ من الذي اخترع الإنترنت ؟ من الذي اخترع وسائل التواصل الحديثة ؟ ومن الذي اخترع التلفزيون ؟ ومن الذي اخترع الراديو واللاسلكي ؟ ومن الذي اخترع كل هذه كلها الوسائل ؟ هل كان للعرب يد في ذلك ؟

وعلى الرغم من ذلك فإن الموضوع الذي نتحدث فيه هو صناعة المعلومات والمعرفة، فماذا قدم العرب في هذه الصناعة ؟ لنضرب مثالين فقط، ليس أكثر.

في قضية تغير المناخ

في حوالي منتصف التسعينيات من القرن العشرين، تدافع علماء البيئة والمناخ لإقناع العالم بأن الكرة الأرضية مهددة بتغير المناخ، وهذا يعني ظهور أعاصير وفيضانات وأمطار، وذوبان جليد القطب الشمالي والجنوبي، وغرق العديد من البلدان وخاصة الفقيرة والمنخفضة، وتحول الكثير من المناطق الأخرى إلى مناطق متصحرة جافة. وبناء على ذلك تم إقامة العديد من المؤتمرات والندوات، وسمعنا الكثير من الصيحات، والغريب في الموضوع ربطه – بطريقة أو بأخرى – بحرق النفط، وقال العلماء أنه بسبب النفط الذي يُحرق تتصاعد غازات الدفيئة التي تسبب انطلاق غاز ثاني أكسيد الكربون وبعض الغازات الأخرى التي تؤدي إلى تنامي هذه الظاهر، وعندما تم سؤالهم عن الفحم الذي هم يستخرجونه ويستخدمونه في مصانعهم ومنازلهم سكتوا وغضوا الطرف عن الموضوع.

والأغرب من ذلك كان الغرب يحاول جاهدًا أن يفرض على الدول المنتجة للنفط وخاصة دول الخليج العربي ضريبة على كل برميل نفط يباع، ولقد أطلق على هذه الضريبة باسم (ضريبة الكربون)، ولقد تصدت دول الخليج

العربي لهذا النوع من الابتزاز بقيادة المملكة العربية السعودية وتم إلغاء الضريبة إلا أن موضوع تغير المناخ ما زال قائمًا.

وفي المقابل قام مجموعة أخرى من العلماء الذين أزاحوا بعض الستار عن هذا الموضوع، وقالوا إن موضوع تغير المناخ موضوع سياسي بحت تريد من خلاله الدول العظمي أن تفرض سيطرتها على نفط العالم، وحتى أنهم أشاروا – إن لم تخني الذاكرة – الى إن حوادث التسونامي ما هي إلا كذبة وسيناريو يراد به تأكيد حقائق غير حقيقية.

وللحقيقة نقول إنه قد تكون قضية المناخ حقيقة وواقعًا، ولكننا لا نعلم أي شيء في الموضوع وذلك بسبب بسيط وهو إن المعلومات التي نستقيها كلها تأتي من دول الغرب والشرق، فالدول العربية لا تصنع المعلومات ولا تعرف أن تصنع المعلومات في هذا الموضوع، وحتى علماءنا الذين يقومون بدراسة هذه الظاهرة في دولنا يقومون ببساطة بتحليل المعلومات عبر وسائل غربية وفي دول غربية، فأين المختبرات العربية من هذا الموضوع ؟

في قضية جائحة كورونا

منذ بدايات يناير 2020 ونحن ندور في حلقات مفرغة مع الفيروسات التاجية التي تسبب كورونا، فتارة باسم كوفيد -19، وتارة باسم المتحور

دلتا، وتارة باسم متحور جديد وهو أوميكرون، ولا نعرف ماذا يخبئ لنا الغد وماذا سيحدث ؟

ثم أتى دور اللقاح، فالصين أطلقت مجموعة من اللقاحات، ثم جاء الدور على أمريكا، وبعد ذلك روسيا، وكل دولة تقول إن اللقاح الذي انتجته هو الأفضل، ونحن – كعرب – في أماكننا نراوح، لا نعرف أيًا من اللقاحات هو الأفضل وأيها لا جدوى منه. كل الذي قمنا به كعرب شككنا في الجائحة، ثم شككنا في اللقاح وقلنا في اللقاح ما لم يقله أبو نواس في الخمر، حتى إن بعض الناس قالوا إن الغرب والشرق اتفقوا على أن يضعوا في اللقاح شرائح يمكن أن تغير التنظيم الوراثي الموجود في أجسامنا.

وعلى الرغم من ذلك لم يتحرك العرب ليقدموا أي شيء في هذا الموضوع، لذلك نسأل، أين المختبرات العربية من كل هذا الهرج والمرج، فلماذا لم نسمع طوال هذه الفترة أن دولة عربية قالت إنها أنتجت اللقاح بعقول وأيد عربية، وفي مختبرات عربية ؟ لماذا انتظرنا كل هذه الفترة حتى يُصنع لنا للقاح، ونحن نقف في الطوابير لنستخدمه، ثم نتكلم ونشجب ونرفض؟

هذا هو وضعنا في العالم العربي، توجد لدينا إشكاليات ونحن نعيش في هذا العصر، عصر المعلومات والمعرفة، فمن يمتلك المعلومات والمعرفة فإنه يمتلك القوة بجميع أنواعها، ونحن لا نمتلك المعرفة ولا المعلومات فكيف يمكننا أن نغير هذا الواقع لنصبح من العالم المنتج ؟

هل يمكننا أن نعيد تفكيرنا في ذلك ؟